الطبيعة في صورة ابن زيدون الشعرية

أ.د. محمد مولود خلف المشهداني
جامعة بغداد – كلية الآداب

مقدمة :

تطور مفهوم الصورة الفنية عند الأندلسيين ، وأصبح أكثر وضوحاً ودلالة وبخاصة عند حازم القرطاجني المتوفى سنة ٦٨٤ للهجرة فقد أولى التخييل والتصوير والمحاكاة عناية كبيرة إذ نراه يقول : ((واعتماد الصناعة الشعرية على تخييل الأشياء التي يعبر عنها بالأقاويل ، وبإقامة صورها في الذهن بحسن المحاكاة))[١] .

وحازم بهذا يؤكد مقولة الجاحظ المشهورة ((إنما الشعر ضرب من النسج وجنس من التصوير))[٢] .

وما كان للشاعر الأندلسي أن يجسد هذه الصورة ذهنياً عند المتلقي إلاّ من خلال التشبيه والاستعارة والكناية ، فشأنه فيها شأن الرسام والمصور الحاذق الذي يلتقط الجزئيات ليصنع لوحة جميلة يكون لها في ذهن الناظر (المتلقي) صوراً تكون مدار صلة بين الطرفين الفنان والمتلقي .

فالصورة تشكيل جمالي يعتمد اللغة أداة وتسهم في انطلاقها القدرة التعبيرية للشاعر بما لها من التأثير النفسي وإمكانية الخيال على تشكيلها وصياغتها ومدى تجسيد عناصرها في ذهن المتلقي بما يخدم المعنى الذي هدف إليه الشاعر وقدرته على استقصاء كل معالم الجمال حوله لاستلهامها من خلال الكلمات في العملية الإبداعية ، فهي لا تتشكل مجردة من دون توافر عناصرها .

وكان من الطبيعي أن تصبح الصورة عموداً يقام عليه البناء الشعري وملمحاً مهماً من ملامح النص الأدبي وجماليته ، فالشاعر الجيد هو الذي يمتلك القدرة على التعبير بالصورة عن المعنى وتكون وسيلته إلى ذلك اللغة الراقية وهذا

يتفق وما ذهب إليه س-دي لويس حين جعل من الصورة في الشعر اللوحة التي ترسم عليها الكلمات ما توصل إليه الخيال من انعكاس الحقيقة[٣] .

وإذا كانت الدراسات الحديثة ترى أن الصورة الشعرية وسيلة الأديب في التعبير عن عالمه الخيالي بمختلف مصادره الواقعية والخيالية والعقلية فإن هذه الدراسات تَعدُّ الطبيعة مادة أساسية من مواد الصورة وتستدعي استجابة الحواس[٤].

وقد ارتبط تصوير الطبيعة بقدرة الشاعر على تصوير والتقاط عناصرها ومن ثم إعادة تركيب هذه العناصر بصورة مبدعة مبتكرة .

الطبيعة في الشعر الأندلسي :

ارتبط الشعر منذ ما قبل الإسلام أوثق ارتباط بالبيئة الطبيعية التي تحيط بالشاعر "وتفاعل معها بحواسه وعقله ومشاعره ووجدانه"[٥] . فأستولت عناصرها على أحاسيسه . وكان لتعدد البيئات وكثرة عناصرها وتلونها بمختلف الألوان أثر في غنى التجربة الشعورية ، واتّساع خيال الشاعر وخصوبة قريحته بل في رقة ذوقه ورقيّة ، وهو ما نَلْمسه في شعر شعراء الأندلس ، فقد شكلت الطبيعة معيناً ثرّاً لهم وخصوصاً أولئك الذين ولدوا ونشأوا في الأندلس وترعرعوا في سهولها ووديانها وبين رياضها فاختزنت مخيلاتهم تلك الصور الجميلة الرائعة .

وإذا كان وصف الطبيعة قد استحوذ على الشاعر الأندلسي بأن انفعاله بها تدخل تدخلاً كبيراً في تشكيل لغته الشعرية التي أصبحت تضم من ألفاظ الطبيعة الساحرة وعباراتها الرائعة فيضاً زاخراً حتى بلغ الأمر ببعض شعراء الأندلس أنهم كتبوا قصائد كاملة في وصف الرياض وأنواع الورود ، والجبال والأنهار ، وهو ما جعل حبيب الحميري يؤلف كتابه "البديع في وصف الربيع" "يحدوه إلى ذلك إهمال أهل بلده في تسجيل شعرهم وجمعه وشيء من سأم لما قرأ في هذا الباب من أشعار المشارقة ، واعجابه بالتشبيهات التي تمت لأهل بلده ، في مدى قصر من الزمان ..."[٦] .

أن شعراء الأندلس في تناولهم الطبيعة لم يعكسوا جمالها على مرآة شعرهم ولم يصفوا حسن منظرها وصفاً خارجياً بل تفاعلوا معها وجدانياً ومالوا إلى أنسنتها وتشخيصها وامتزجت مشاعرهم مع عناصرها فجاءت لغة الخطاب الشعري مليئة بالانفعالات الوجدانية ، ولم تعد الطبيعة في نظر الشاعر "مجرد ألوان ونبات وظواهر ، بل أخذت بعداً آخر ، فيه إنسانية ، مصورة على مزاجه وذوقه ، يلوذ بها أوقات فرحه وترحه ، ابتسامه وبكائه"(٧) .

ولم يكن وصف الطبيعة مقتصراً على شاعر دون آخر بحكم تأثيرها في الجميع فضلاً عن أن هذا الفن أصبح تياراً أدبياً لا يرغب أي شاعر أندلسي الخروج عنه ، بل صار الهوية التي تعرّف به وتميزه من غيره من الشعراء ، فكان "يجرب قريحته ويصقل موهبته بممارسة هذا الفن ومعاناة النظم فيه ، وهو مدرك أن ليس من السهل التوفيق فيه ، والإتيان بما هو جديد مبتكر"(٨) ، أن هو وقف عند حدود الصور التقليدية لوصف الطبيعة ولم يغادرها فصار يسعى جاهداً إلى التجديد في البنية الفنية للقصيدة الأندلسية واستطاع أن يغير من منحاها الأسلوبي شيئاً فشيئاً وينتقل بوصف الطبيعة إلى كل الفنون الشعرية الأخرى من غزل وخمر ومدح ورثاء وغيرها(٩) ، حتى أصبح فرح وصف الطبيعة بوصف الخمر ومجالس الأنس واللهو والطرب والحب أمراً مألوفاً لا غضاضة فيه ولا ضير على الشاعر إذا فعل ذلك(١٠) .

وبلغ بهم حب الطبيعة درجة أنهم أتخذوا من وصفها مقدمات لقصائدهم بدلاً من الغزل التقليدي وبخاصة قصائد المديح ، وكانوا يجدون التشجيع من الممدوحين أنفسهم(١١) ، وإذا نالت تلك القصائد حظاً من الجودة والإبتكار غدت موضع معارضة من لدن الشعراء الآخرين ، واتصلت المعارضة من شاعر إلى آخر . وقد عرف الشعر الأندلسي هذه السلاسل وإلفها ووصلت إلينا قصائد كثيرة منها(١٢) .

وكان طلب الصورة المبتكرة سبباً في ظهور تلك "المقطعات القصيرة التي نظموها في وصف صنوف الأزهار فبعضها يمثل (بطائق) المهاداة بين الأصدقاء"(١٣) . فامتزجت فيها العاطفة الإنسانية مع الأحساس بجمال الطبيعة في أسلوب أنيق عذب .

وقد أصبحت تلك المقطعات الشعرية موضوعاً للجدل والمناظرة بين الشعراء امتحنوا به مقدرتهم "على إقامة الصلة العاطفية بينهم وبين المنظر الجميل"(١٤) .

الطبيعة في صورة ابن زيدون الشعرية :

من الخطأ التعامل مع النص الشعري لإبن زيدون في وصف الطبيعة على أنه وصف مجرد لعناصرها من حوله دون أن ينظر إلى تلك العلاقة بين أحاسيسه النفسية الداخلية ومشاعره الوجدانية ، وجمال البيئة الأندلسية التي غدت عنده "رموزاً تشير إلى عالم أعمق يمكن تقربه عن طريق الذات لكشف الترابط الغامض بين المادة والروح"(١٥) .

وما كان لإبن زيدون أن تتكون صوره الشعرية في أغراضه الوجدانية ، دون أن يكون للبيئة الأندلسية أثر فيها شأنه في ذلك شأن أولئك الشعراء الذين غلبت على نتاجاتهم الصور المستمدة من الطبيعة . ولهذا أسقط إبن زيدون من حساباته الحواجز المألوفة بين الجمال الطبيعي المجرد ، والمقدرة على الإحساس به من خلال الانفعال الوجداني الذي يثيره النظر إلى عناصر البيئة أو تذكرها.

ومن الواضح أن إبن زيدون قد منح الصورة الشعرية دلالات خاصة ارتبطت (بتجربته الشعورية الآنية في رسم اتجاهات النفس الواقعة ضمن دائرة التعادل النفسي بين ذاته وما يحيط به من محسوسات)(١٦) .

أنظر إلى قوله(١٧) :

ألم يَأنِ أن يبكيَ الغمام على مثلي؟
ويطلبُ ثأري البرقُ منصلتَ النَّصلِ ؟
وَهلاّ أقامَتْ أنجمُ الليلِ مأتماً
لتندبَ في الآفاقِ ما ضاعَ من تَبْلِي
ولو أنصَفتْني وهْنَ أشكالُ هِمّتي
لألقتْ بأيدي الذُلِّ لَمّا رأتْ ذُلّي
ولافترقتْ سَبْعُ الثُريّا وغاضَها
بمطلعِها ما فرّقَ الدَّهرُ من شَمْلي

ومما لاشك فيه إن ابن زيدون امتلك ذائقة ممتازة جعلته يتحسس مواطن الوضاءة والإحسان في الطبيعة يسند هذه الذائقة إحساس مرهف خلق بينه وبين الطبيعة ألفة محببة ، ولذلك نجده في وصفه يسلك سبلاً غير تلك التي سلكتها الشعراء من أهل عصره . ومن هنا جاءت صورهِ الجمالية غاية في الروعة والجودة والإتقان فهو في هذين البيتين يقدم صورة رائعة بقوله(١٨) :

كأن عَشيَّ القَطْرِ في شاطئ النَّهرِ
وقد زَهَرَتْ فيهِ الأزاهرُ كالزَّهْرِ
تُرشُ بماء الوُردِ رَشّاً وتنثني
لتغليفِ أفواهٍ بطيِّبَةِ الخمرِ

ولا أظن أن إبن زيدون أراد السكر بطيب الخمر في هذين البيتين وإنما أراد السكر بجمال الطبيعة وسحرها التي رآها في عين شاعر فضلاً عن أنه حرص على أن يقدم بيتيه بموسيقى عذبة تنسجم مع جمال المشهد نلاحظها في ذلك الإتقان العزب الذي خلقته الجمل القصيرة ، عشي القطر ، شاطئ النهر ، الأزاهرُ كالزَّهْرِ ، طيبة الخمر .

وقريب من هذا قوله في وصف مدينة الزهراء وجمالها فنراه يرسمها لوحة جميلة يبعث فيها الحياة ناطقة متحركة بكل ما تحويه من جمال فيقول(١٩) :

ويا حبّذا الزهراء بَهْجَـةَ منظـــرِ ورقَّـةَ أنفاسَ وصِحَّـةَ جَوْهَـرَ
وناهيك مِنْ مَبْدا جمالٍ ومحضـــرِ وجنةِ عدْن تطيبكَ وَكَوثَـــرِ
بمَرأى يزيد العُمْـرَ طيبـــاً وَينْسَـــأ

ويغمرنا الإعجاب بهذه الأبيات التي رسم بها ابن زيدون صورة الزهـــراء في مخيلته أولاً ثم جسدها بفنه وكلماته فأبدع منها لوحة فنية صدرت عن شـــاعر عاش مع الطبيعة وفيها وكأنها تملكته إحساساً وفناً وتملكها إبداعاً وذكرى وقـــدرة على إحضارها ليس أمام عينيه بل أما أعين المتلقين لنصه وانفعالهم به .

واستمع إلى تلك النجوى التي ضمنها ما اعتمل في نفسه من ذكريات ومـــا حال في خاطره من حسرات وزفرات على لياليه في مدينة قرطبة حتى جعل مـــن الطبيعة الجميلة لمدينته الفاتنة الغراء بعينا لرسم صوره الشعرية .

والذي يتأمل وصف ابن زيدون لقرطبة يرى أن إحساسه بجمال الطبيعـــة فيها شكل معادلاً موضوعياً لكل ما نتج عن غربته عنها من إرهاصات وتداعيـات نفسية تمثلت بالحنين والحب والذكريات وهو ما نراه في قوله[٢٠] :

أقرطبـــة الغَـــرَّاء هل فيـكِ مَطْمَـــعُ
وهل كبدٌ حـــرى لبينـــكِ تُنْقَـــــعُ
وهل للياليك الحميـــدةَ مرجـــعُ ؟
إذ الحسنُ مرأى فيكِ واللهوُ مَسْمَـــعُ وإذْ كَنَفُ الدنيـا لديـكِ مُوَطَّـــــأُ
أليسَ عجيباً أن تشطَّ النَّـــوى بـــكِ ؟
فأحْيَا كأن لمْ أنشَ نَفْـحَ حبَابَـــكِ
ولمْ يلتئـمْ شعبي خلالَ شعَابِـــكِ
ولمْ يكُ خَلْقــي بدوْةٌ من ترابـــكِ ولمْ يكتنفني من نواحيـكِ منْشَـــأُ

واللافت للنظر في هذه الأبيات أن صورة ابن زيدون الشعرية تبـــدو ذات بعدين كلاهما مكمل للآخر متصل به ملازم له ، الأول البعد (الذاتي) الذي يلامس

دواخل نفسه ويسير أغوارها ويذهب بعيداً في أعماقها . والبعد الآخر (القرطبي) الذي يضرب بجذره في أعماق مدينته الحبيبة . وعلى وفق هذه الرؤية يرى الشاعر بدء خلقه من ترابها ، فما هو إلاّ جزء من مكوناتها لذلك يعجب كيف تشط به النوى بعيداً عنها .

الطبيعة في أغراض ابن زيدون الشعرية :

لا يخلو غرض من أغراض الشعر عند ابن زيدون من أثر للطبيعة فيه، وغالباً ما نراه ينطلق من خلالها لتصوير خلجاته النفسية حباً وألماً ، ذكرى وحنيناً.

وهو من شعراء الأندلس الذين وصفوا الطبيعة ليس بفنه التقليدي المجرد بل بتفاعل هذا الفن تفاعلاً جوهرياً في تشكل الصورة الشعرية في موضوعات المدح والرثاء والغزل والخمريات والحنين ، إلاّ أن هذا التفاعل بدا أكثر وضوحاً في غرضي المدح والغزل وهما أغلب شعره إذ بلغا مبلغاً حسناً واتسما بالجودة والأتقان .

لقد كان ابن زيدون الوزير المقرّب من أصحاب الشأن والسلطة مدة طويلة من الزمن مثلما كان العاشق المقيم بحب الأميرة ولادة بنت المستكفي في حلّه قرطبة وفي النأي عنها .

الطبيعة في غزله :

يبرز استعمال ابن زيدون لمفردات الطبيعة في غزلياته بوضوح تشكل منها صوراً ناطقة سواء في لحظات سعادته ولقائه مع حبيبته ، أو في لحظات حزنه وحنينه وابتعاده عنها ، وإذ تكون الطبيعة حاضرة بمفردات واضحة فأنها من ناحية القراءة السيميائية لنصوصه تكشف عن دلالات يتأولها المتلقي فتزيد من اقترابه من المعنى أو تأثره النفسي الذي يبدو أن ابن زيدون جعله ضمن مقاصده.

وغزل ابن زيدون الذي اشتهر به واستخدامه لمفردات الطبيعة فيه لم يكن قسرياً مفروضا عليه وإنما كان جزءاً من تعامله مع الحياة والصور الطبيعية الحقيقية الناطقة حوله ، فيحاول إعادة إنطاقها بلغة شعرية تنتقل بها الطبيعة من صفتها الحقيقية إلى دائرة المجاز من خلال الاستعارة والتشبيه .

وإذا كان شعراء العربية قد سلكوا هذا المسلك مبكراً فأن ابن زيدون تفنن فيه وأغرق وأكثر حتى أصبح سمة من سمات شعره الذي لا يستطيع الدارس تجاوزها دون التوقف عندها .

واللافت للنظر ان ابن زيدون لا يتذكر حبيبته الاّ والطبيعة الساحرة حاضرةٌ في نفسه وإحساسه ، فجمال الحبيبة يعبّر عنه من خلال الطبيعة وكأنه أراد أن يجعل بين جمال الطبيعة وجمال المحبوبة مقاربة دلالية ، وتتشكل من تضافرهما صورهِ الشعرية[٢١] وهو ما يبدو واضحا في قوله[٢٢] :

إني ذكرتك بالزهراء مشتاقا ... والأفق طلقٌ ومرأى الأرض قد راقا
وللنسيم اعتلال في أصائله ... كأنه رق لي ، فاعتل إشفاقا
والروض عن مائه الفضي مبتسمٌ ... كما شقَقْتَ عن اللبّات أطواقا
فلهو بما يستميلُ العينَ منْ زَهَرٍ ... جالَ النَّدى فيه حتى مالَ أعناقا
كأنَّ أعينَهُ إذ عاينتْ أرَقِّي ... بكتْ لما بي فجالَ الدَّمْعُ رقراقا
وردٌ تألَّق في ضاحي منابتهِ ... فأزداد منه الضحى في العين إشراقا
سرى ينافحهُ نيلوفرٌ عبِقٌ ... وسنانُ ، نبَّه منه الصبحُ أحداقا
كُلٌّ يهيجُ لنا ذكرى تُشَوقِنا ... إليكِ لم يغْدُ عنها الصدر أن ضاقا

ولعل قراءة متأنية لهذا النص تكشف لنا لوحته الرائعة أن ابن زيدون استعمل الطبيعة بألوانها وحركتها ومكوناتها في تصوير حالته ساعة الذكرى إذ الأفق طلق ومرأى الأرض قد راقا ، فلم تعد اللحظات مجرد ذكريات أو موجبات لها وإنما أمتد أثرها النفسي عليه ليذكر صورة محبوبته وفراقه لها ، وتلمس الأثر

الذي أحدثه هذا الفراق في الطبيعة فاعتل النسيم إشفاقا لحالته ، وبكت لأرقه أعين الزهر حتى جال دمعها رقراقا .

إن هذه الثنائية في تشكل الصورة الشعرية التي تتردد بين الحب والطبيعة، تعكس رغبة جامحة لتجدد اللقاء عند الشاعر مثل تعكس حالته النفسية التي تشتاق حباً فتتألق كما الورد أو تتعذب للفراق فتبكي كما الزهر .

وفي غزلية أخرى حاول ابن زيدون تجسيد الطبيعة في صوره من خلال أنسنته الظواهر الطبيعية وتشخيصها لخلق دلالة معنوية مؤثرة فليس أدل على السقيا من السحاب المثقل بالمطر ولا أدل على تبليغ التحية للحبيبة من نسيم الصبا الرقيق فوفرت له الطبيعة صورة بديعية قلما يجدها في غير مفردات الطبيعة ، وتساعده أيضاً على تكثيف الصورة بما يوصل المعنى بأقل لفظٍ وأحسنه عذوبة ورقة .

فقال[٢٣] :

يا ساريَ البرقِ عادِ القصرَ واسق به
من كانَ صِرْفَ الهَوَى والودَّ يسقينا
ويا نسيمَ الصَّبا بَلِّغْ تحيَّتَنا
من لَوْ على البُعْدِ حَيَّا كانَ يُحْيينا

أما وصفه للقمر والبدر والنجوم وتشبيه الحبيبة بها فقد كثر في شعر ابن زيدون واتخذ منه أسلوباً للتوسع في المعاني والأخيلة فضلاً عن ما تعطيه هذه المفردات من دلالة حركية ولونية مطلوبة في رسم الصورة الشعرية .

أنظر إلى قوله[٢٤] :

لئن كنتَ في السنِّ يَرْبَ الهلالِ
لقد ضُقْتَ بالحسنِ بَدْرَ الكَمال

وقوله[٢٥] :

يااقرأ مطلعَـهُ المغــــربُ قد ضاقَ في حُبِّـكَ المذهَـــبُ

وقوله أيضاً(٢٦) :

يا هلالاً تتــــراءا هُ نفوسٌ لا عيــــونُ
عجباً للقلبِ يقســـوُ منكَ والعِطفُ يليــنُ
ما الذي ضــرّك لوُسر رَّ بمــرآك الحزيـــنُ

لقد بدا واضحا أن ما تثيره مفردات الطبيعة في نفس الشاعر من الأحاسيس والمشاعر نتج عنه صوراً متلاحمة بين الشاعر والطبيعة والمرأة الحبيبة ولم تعـد هذه المفردات "لدى ابن زيدون معادلاً للصور التي درج عليها الشعراء المتمثلـة بالجمال والسمو والرفعة"(٢٧) . بل صارت تعاني لمعاناته وتتـألم لألمـه وتفـرح لفرحه وتنفعل لانفعالاته .

الطبيعــة في مدائحــه :

يستغرق ابن زيدون في استعمال مفردات الطبيعة استغراقاً واضحـاً فـي وصف ممدوحيه ، وينتخب من هذه المفردات ما يلائم مقاصده في المديـح فـلا تكون اللفظة الدالة على الطبيعة ذات دلالة مجردة بل إنها تأخذ معناها عنـد ابـن زيدون من دلالتها السياقية التي يشكل منها صورته الشعرية . فتكون الطبيعة فـي شعره المدحي ذات اتجاهين : الأول – إبداع صورة فنية شعرية عالية ، والثاني– في التعبير عن المعاني التي تدور في ذاته ومن ثم يسقطها على الممـدوح مـن خلال دلالة المفردة الطبيعية . فإذا كانت مفردة الشمس في شعره الغزلـي تمثـل بهاء المحبوبة ووضاءتها فإن دلالتها في شعره المدحي تنتقل إلى تمثيل الكبريـاء وتعظيم الممدوح وتبجيله من ذلك قوله(٢٨) :

لما وردتُ بوردِ حضرتكَ المُنَـى
فهقَـتْ لَدَيَّ جمامَهَــا الأعـدَادُ
فاستقبَلَتني الشمسُ تبسُطُ راحَـةً
للبحْرِ من نفحاتِهـا استمِـدادُ

وقد ينقل الشاعر دلالة صورة طبيعية متكاملة رسمَ لوحتها بإتقان إلى صورة تخدم غرضه في المدح فلا يعود من فرق بين الدلالتين في حالة الوصف الطبيعي أو في المدح .

من ذلك قوله(٣٠) :

وبوَّأتَهُ دُنْيَاكَ دارَ مَقَامَةٍ بَحيثُ دَنَاظِلٌ وذُلِّلَ تقْطفُ
وكَمْ نِعْمَةٍ ألبستُها سُنْدُسيَّةٍ أسرْبَلُها في كلِّ حينٍ وأُلْحَفُ
مواهبُ فيَّاضِ اليدين كأنَّما منَ المُزْنِ تُمْرى أو من البحرِ تُغْرفُ

لقد أصاب الشاعر قصده ووفق في رسم ما أراد من صور المدح وشكل لوحته التي تصف عطاء (المعتضد) بلغة شعرية عذبة استعارها من الطبيعة ، فدنو الظل والثمار الهينة القطف والنعم السندسية وماء المزن وفيض البحر صور معبرة عن عطاء ممدوحه بعد أن أجاد نقل دلالتها وتوظيف هذه الدلالة الجديدة في سياق شعري آخر .

وإذا أراد أن يذكر محاسن ممدوحه تراه يلجأ إلى الطبيعة فيقول(٣٠) :

ومحاسنٌ تندى رقائقُ ذكرها فتكادُ توهِمُكَ المديحَ نسيبا
كالآسِ أخضرَ نضرةً والوردِ أحمَرَ بهْجةً والمِسْكِ أذفَرَ طيبا

فمحاسن الممدوح وأنمة الخضرة كالآس ، وبهجته وحسن خلقه كالورد الأحمر تألقاً وكالمسك في عبيره الفواح اشتهاراً بين الناس . وفي كل ذلك يرسم صورة الممدوح بأوصاف الطبيعة .

ويتخذ ابن زيدون من قصد المعتضد مناسبة لمدحه وتهنئته بالشفاء والابلال فيصف كيف سال دمه فاكتست الأرض منه بهجة وزينة كزينة الحدائق المتشابكة الأغصان أو حواش الثوب المزخرف المزدان قال(٣١) :

سرى دمك المهراق في الأرض فاكتست

أنانين روضٍ مثل حاشية البُـــردِ

فَصـــادٌ أطابَ الدهرَ كالقطر في الثـــرى

كما طاب ماء الورد في عنبر الوردِ

وما أجمل هذه الصورة التي حول بها الشاعر دم المقصود إلى قطر بـلعث للحياة كل ذلك من خلال الإستفادة من سعة المعاني باستعمال مفردات الطبيعة فـي رسم صورة يكون لابن زيدون السبق بها على غيره من الشـــعراء ، وبانتخـاب ألفاظ في غاية العذوبة والسلاسة ، وبصنع لغة شعرية خاصة به تنقل الدلالات إلى مستوى تجاوز المألوف فيما تعارف عليه الناس ، فتحول القصد إلى حياة للنـــاس وليس لممدوحه .

ومدح الشاعرُ ابن جهور فذكر مناقبه ، لكنها مناقب منقولة عـــن صفـات الطبيعة فقال[٣٢] :

شيمٌ هي الزهرُ الجنيُّ تبســـتْ عنه الكمائـمُ في الضحاء الماتِـحِ

فشم الممدوح زهر جني تفتحت عنه الكمائم في النـــهار الواضـــح ، أنـــها مناقب رائعة اشتهرت بين الناس ونمت .

تعد رسم ابن زيدون صورة قلما يغدر الشعراء على الإتيان بها بعث فيـــها الحركة والتجدد والاستمرار وهو ما أراده من شيم للممدوح لم يجد سوى الطبيعـة رفداً له وملهما لإبداعه الشعري .

ألـوان الطبيعة في صور ابن زيدون الشعريـة :

استلهم ابن زيدون ألوان الطبيعة التي تحيط به لرسم صـــوره الشـعرية . موظفاً دلالة الألوان توظيفاً جيداً في عكس أنفعالاته بما يؤثر في نفســية المتلقـي وبالتالي تجسيد الصورة في ذهنه بالطريقة التي يختارها منطلقا من قـــدرة فائقـة

على الصياغة سواء في استعمال اللون الذي يوافق الصورة أو في موسيقى اللفظة التي توافق الإيقاع الداخلي للبيت الشعري عنده .

وتبدو دلالة اللون واضحة في ما تجسده ثنائية البياض والسواد من التفاؤل أو التشاؤم وما يبعثه كل لون من إحساس لديه بحسب الحالة النفسية التي يمرّ بها الشاعر ، من ذلك قوله(٣٣) :

حالت لفقدكم أيامنا فغدت سوداً وكانت بكم بيضاً لياليناً

فأختار السواد دليلا على ثقل الأيام وشدة وطأتها وتغيّر الأحوال وذهاب المسرّة ، أما البياض فدليل على الهناءة التي لم تدم طويلاً وأيام السعادة التي مرّت سريعة .

وفي الرثاء يكوّن اللون الأبيض المستمد من لون كفن المعتضد ممزوجاً باللون الأخضر المستمد من بهاء الطبيعة ، الصورة التي يريدها الشاعر من العلاقة اللونية المستحدثة ودلالة كل لون منهما ، فالبياض وأن دلّ على لون الكفن وبالتالي صورة الموت ، الا أنه أراد به الذكرى الساطعة التي تبقى بعد الموت ولذلك جاء بما يعادل هذه الصورة من خلال اللون الأخضر ودلالته على تجدد النعم واستمرار الحياة ودوام الأمل . فقال(٣٤) :

لئن كان بطنُ الأرض هيئَ أنه بأنك ثاويه لَقَدْ أوحشَ الظهرُ
لعمر البرود البيض في ذلك الثرى لقد أدرجت أثناءها النِّعمُ الخضرُ

ومن خلال المزج بين لونين من ألوان الطبيعة حاول ابن زيدون ان يشكل صورة شعرية غاية في دقة التعبير . ففي قصيدة غزلية عكس متعة اللحظات التي قضاها مع محبوبته وقد افترشا الأرض التي تلونت بالأحمر والأصفر من النباتات، ولعله أدرك تلك المقاربة اللونية بين هذين اللونين وما تعكسه من انفعال نفسي في لحظات لقاء الأحبة . فقال(٣٥) :

وكم مشهدٍ عند العقيق وجسرهِ   قعَدْنَــا على حمرِ النبات وصفْــرهِ
وظبْيٍ يسقينا سلافَةَ خمــــرهِ   حكى جسدي في السقم رقة خصــرهِ
لو خطه عند الرّنـــوِّ سهــــام

وكم كان ابن زيدون مبدعاً ماهراً حين وصف تلك اللحظات (المشهد) فـهيأ ذهن المتلقي لرسم صورة ذلك المشهد بعد أن قدم له باللونين الأحمــر والأصفـر مادة أولية لتشكيل الصورة الذهنية وبنسق إيقاعي يكون فيه حرف الـــراء عماد اللونين لفظاً بما يتوافق مع قافية القصيدة وابن زيدن ملتفت إلى دقة استعمال اللون وما يؤديه من دلالة فيأتي به ليعبر عن الصورة اللونية المطلوبة .

من ذلك قوله(٣٦) :

لم يعْلَمـــوا أن الهَـــوَى   رقٌ وأن الحسنَ أحمَـــــرْ

فاللون الأحمر تحول عن دلالته اللونية المجردة إلى دلالـــة أخـرى تفيـد الشقاء وتبين ان الحسن قهار غالب ، لا سبيل إلى مقاومته ، يلقى العاشق منه مـــا يلقى صاحب الحرب من الحرب ، فلم يجد أبن زيدون غير اللون الأحمر مناســباً لهذه الدلالة الجديدة لما فيه من معاني القوة والشدة .

وشكل ابن زيدون لوحاته الشعرية مستخدماً ألوان الطبيعة الحيـــة مثلمـــا رسمها دون أن يذكر تلك الألفاظ بل جاء بما يدل عليها ، فجسّد بروعة صياغتـــها وأنزياح دلالتها ما منح لغته الشعرية نمطاً خاصاً تميز به .

أنظر قوله(٣٧) :

زارني بعد هجعــةٍ ، والثريـــا   راحةٌ تقْدِرُ الظلامَ بشبْـــــرِ
والدُّجى من نجومه في عقــود   يتلألأن من سمـــاكٍ ونَسْـــرِ
تحســب الأفقَ بينها لا زورْداً   نُثِرَتْ فوقَهُ دنانيرُ تِبْـــــرِ

أنها لوحة لونية رائعة رسمها ابن زيدون بإتقان وجعل مادتـــها عنـاصر طبيعية هي الدجى والظلام ثم النجوم التي تتلألأ لتشكل صورته من خلال الأفـــق اللازوردي الذي تطغى عليه الزرقة من اتحاد تلك العناصر وكيف ترصع بالنجوم الذهبية ، وبذلك تكتمل في ذهن المتلقي لوحة أبدعها الشاعر رسماً بكلامه تعكـس إحساسه المرهف بموجودات الطبيعة من حوله .

الهوامش :

١ - منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني (ت ٦٨٤هـ) ، تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة دار الغرب الإسلامي ، بيروت ١٩٨٩ ، ص٦٢.

٢ - الحيوان لأبي عثمان عمرو بن سحر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) تحقيق عبد السلام محمد هارون ، منشورات مكتبة مصطفى البابي / مصر ١٩٣٨ ، ١٣١/٣ .

٣ - الصورة الشعرية س. دي لويس ، ترجمة أحمد نصيف الجنابي وآخرون منشورات وزارة الثقافة والإعلام ، جمهورية العراق ١٩٨٢ ، ص٢٠ .

٤ - القصيدة الأندلسية خلال القرن الثامن الهجري، د. عبد الحميد عبد الله الهرامة ، تونس ١٩٩٦ ، ٣٦٤/٢.

٥ - الأدب العربي في الأندلس تطوره موضوعاته وأشهر أعلامه . د. علي محمد سلامة ، بيروت ١٩٨٩ ، ص٨٥ .

٦ - تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر الطوائف والمرابطين ، د. إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٧٨ ، ص١٩٤ .

٧ - الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس د. محمد مجيد السعيد ، بغداد ١٩٨٠ ، ص١٢٠ .

٨ - المصدر نفسه ، ص١١٨ .

٩ - الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه ، د. مصطفى الشكعة ، بيروت ١٩٧٩، ص ٢٥٦ .

١٠ - الأدب العربي في الأندلس ، د. علي محمد سلامة ، ص١١٩ .

١١ - تاريخ الأدب الأندلسي ، إحسان عباس ، ص١٩٦ .

١٢ - البديع في وصف الربيع ، أبو الوليد اسماعيل بن عامر الحميري توفي تقريبا من سنة ٤٤٠ هـ ، تحقيق هنري بيريس ، الرباط ١٩٤٠ ص٤٢ .

١٣ - تاريخ الأدب الأندلسي ، إحسان عباس ، ص١٩٧ .

١٤ - المصدر نفسه ، ص١٩٧ .

١٥ - البنية الموضوعية والفنية للشعر الوجداني ، عبد الكريم راضي جعفـــر ، رسالة دكتوراه - كلية الآداب ، جامعة بغداد ، ١٩٩١ ، ص٢٥٥ .

١٦ - الصورة الفنية في شعر ابن زيدون ، عبد اللطيف يوسف ، رسالة دكتوراه، كلية الآداب ، جامعة بغداد ، ١٩٩٩ ، ص٣٨.

١٧ - ديوان أبن زيدون ورسائله (ت ٤٦٣) ، تحقيـــق علـــي عبـــد العظيـــم ، منشورات دار نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص٢٦١ .

١٨ - المصدر نفسه ، ص٢٤٤ .

١٩ - المصدر نفسه ، ص١٣٥ .

٢٠ - المصدر نفسه ، ص١٣٣ .

٢١ - ملامح الشعر الأندلسي ، د. عمر الدقاق ، بيروت ١٩٧٥ ، ص١٥٤ .

٢٢ - ديوان ابن زيدون ، ص١٣٩ .

٢٣ - المصدر نفسه ، ص١٤٤ .

٢٤ - المصدر نفسه ، ص١٦٩ .

٢٥ - المصدر نفسه ، ص١٦٩ .

٢٦ - المصدر نفسه ، ص١٧٧ .

٢٧ - الصورة الفنية في شعر ابن زيدون ، ص٤٣ .

٢٨ - ديوان ابن زيدون ، ص٤٦٥ .

٢٩ - المصدر نفسه ، ص٤٩٧ .

٣٠ - المصدر نفسه ، ص٣١٩ .

٣١ - المصدر نفسه ، ص٥٠٠ .

٣٢ - المصدر نفسه ، ص٤٠٣ .

٣٣ - المصدر نفسه ، ص١٤٣ .

٣٤ - المصدر نفسه ، ص٥٦٤ .

٣٥ - المصدر نفسه ، ص١٣١ .

٣٦ - المصدر نفسه ، ص١٧٣ .

٣٧ - المصدر نفسه ، ص٢٣١ .